قصة قصيرة

# هو وابنته والكلب !!

محمد علوان

فوق شجرة اللوز ، حط عصفور صغير .. تحت شجرة اللوز ، نبح كلب جائع . نظر الى العصفور . تحول نباحه الى صوت متهالك . نكس رأسه . سار مسافة . انتشر قليل من الامن في قلب العصفور . هبط من غصن الى اخر . عاد الكلب الى نباحه ...

على مقربة من شجرة اللوز كانت تقف ( سعدى ). فوق ظهرها قربة ماء . تريح جسمها برهة . الماء يتسرب قليلا قليلا . نظرت الى الكلب الجائع والى العصفور الخائف .. ابتسمت محدثة نفسها : لا الكلب الجائع يستسيغ اكل الحب المنثور فوق الارض ولا العصفور يملك الجرأة فيأكله .

خلاف أزلي . خلاف النوعية وخلاف القدرة وفي مجمل الحالات لا بد من وقوع الضحية ..

تسير الامور على انها لا بد وان تحدث على هذه الشاكلة .. يغيب الكلب وراء الشجرة .. يلتف حولها مرارا . يبسط ذراعيه . الصوت المثقوب بحزن الجوع يند عنه بين الحين والاخر . غالبه نعاس مفاجيء . هبط العصفور من غصن الى غصن وكورقة صغيرة حط فوق الارض . ينقر هنا وهناك . حين يصبح الفرح في القمة فمعنى ذلك انه بدء مرحلة السقوط . الارض مساحة من تسامح . هكذا تبدأ كل النظريات . جفن العين ينفتح في بطء . على مرمى البصر كان العصفور . دائرة الرؤية تضيق .. تضيق ولم يبق في داخلها غير العصفور . جفن العين يطبق . حلم الشبع يتحقق . مساحة التسامح تتلاشى . دعوة البقاء تحرك في الخاطر شيئا . اذن فلا بد من الانقضاض ولتكن الوجبة دسمة . الوجبات الكبيرة دائما للافواه القادرة على المضغ الجيد ، للبطون المتخمة . تحفز الكلب . ابتلعت سعدى ريقها . صرخت بلا وعي . انتفض العصفور . سقطت يد الكلب . لم تفز بشيء سوى قبضة من تراب . يزداد النباح . ترفرف الاجنحة . المنقار الصغير يحمل قشه . يغيب . خلت شجرة اللوز من العصافير . الكلب الجائع لا يزال . امسكت سعدى بفم القربة . لامست برودة الماء ظهرها . حركاتها المتتابعة ايقاعية غير مقصودة تسببت في خروج قطرات من الماء من فم القربة القريب الى صدرها . يتسلل الماء . ينساب فوق الجسد الشاب باردا اول الرحلة . ترتعش « سعدى » . يتحول الماء الى سحابة من بخار تعبق امام عينيها . تمسح بلسانها شفتها العليا . تعض شفتها السفلى . تغمض عينيها ... تراه امامها . يحمل لها ثمار التوت . أعادها الى يقظتها صياح ديك يفرد جناحه الايسر ، يدور حول نفسه مرارا واثقا من قدرته ، متباهيا بريشه الغزير . والدجاجة استكانت في النهاية تحته . وكانت لحظة .. نفض الديك ريشه . والدجاجة تنتزع جسدها . رفع رأسه . وتحت عرفه الاحمر كان صوته مليئا بالنشوة . جذبت سعدى القربة من فوق مؤخرتها وسارت وحرارة غريبة تنبعث في أوصالها ..

* * *

ـ بئر بها بترول !

ـ كل شيء ممكن في هذه الدنيا .. عدا ما قلت .

ـ وما الذي يضطرني للادعاء ؟

ـ انا لم اقل ادعاء . لم اشر الى كمية الصدق فيما تقول . لكن النواحي العلمية لم تقرر حتى الان وجود مثل هذه الثروة في مثل هذه المنطقة لاختلاف التركيب الطبقي .

ـ وهل التركيب الطبقي يمنح مكانا ميزة يختلف بها عن مكان اخر ؟

ـ أعتقد ان لا جدال في ذلك .

ـ لماذا لا تقول انه الحسد ؟ أهل هذه القرية يستنشقون هواء نقيا ، الا انه فشل في انقاذهم من مرضهم هذا .

ـ قلت لك ان الامر لا يحتمل هذا الدفاع عن ممتلكاتك ، فهي لك بموجب صك شرعي يخول لك التصرف المطلق بأرضك وبالبئر التي تهمس للناس بوجود ثروة الذهب بداخلها . لكن على افتراض صحة ما تقول ، أيمكن لك ان تستفيد من هذه الثروة بمفردك ، ام ان خير

هذه الثروة سوف يعم أهل قريتك ، يدفع عنهم البؤبئة، يمنحهم المسكن النظيف ، اللقمة ، العافية ، العلم ، نعم العلم ؟ فلن تستطيع ان تستفيد من بئرك هذه دون علم اهل القرية . أم تنتظر نصف قرن او قرنا كاملا من الزمان لكي تنبت لك الارض مجموعة من الورثة الاغنياء متمتعين بكل شيء عدا المعرفة ؟ أتدرك حينذاك ماذا يحدث للبئر ـ هز رأسه بالنفي ـ يحدث يا سيدي الحالم ان البئر قد امتصتها البحار السبعة والورثة يجوبون الطرقات لتخفيف اوزانهم . وسوف يعود الكلب الجائع تحت شجرة اللوز . والعصفور يرقب حبة قمح فوق الارض . وسعدى سيظل ظهرها وفمها الجميل مليئا بالماء . وصدرها سيظل مشتعلا لا تطفئه الا الاحلام ...

ـ ماذا تعني بذلك ؟ هي مجرد افتراضات سابية. هذه البئر ستخلق لي كل شيء . هذه الشجرة سوف أقتلعها واغرس بدلا عنها صفا طويلا من اشجار السرو . هذا الكلب سوف اقتله ، وابتاع كلبا آخر لكنه من نوع نادر . لا تبتسم سخرية ! ان الندرة حقيقية تصبغ بلونها كل شيء . الندرة حتى في الكلاب . اما سعدى فسوف تقذف بهذه القرية الملتصقة بظهرها . سوف تمتليء صحة . ستزهر أطفالا . وتثمر عشقا . سأجعلها تمطر في أعين صبايا القرية .

ـ أفهم من هذا ان التغيير يشملك وابنتك والكلب؟

ـ حاشى . سوف اقيم خمس محطات لضخ البنزين ..

ـ لكن اهل القرية لا يملكون الا الحمير والابقار والجمال ...

ـ ليست مسؤوليتي . عليهم أن يبتاعوا العربات . ان يحاولوا مساعدتي في تغييرهم . وانا قمت بواجبي نحوهم .

ـ اذا فسوف تعمل على تشغيلهم في فتح مدرسة ومستشفى وتوصل الماء الى منازلهم .

ـ لا . سوف تعمل المحطات بصورة آلية ، لانني أعرف اهل قريتي معرفة سابقة .

ـ تعرفهم ؟ كيف ؟

ـ انهم لا يصلحون لشيء .

ـ اذن حاول بثروتك هذه ان تخلق لديهم القدرة على استيعاب الاشياء ، القدرة على الرؤية .. القدرة على ...

ـ قلت لك انهم لا يصلحون لشيء .

ـ لي سؤال : هل بدأت تشعر بتميزك منذ أصبحت تملك هذه الثروة التي لم تتحقق بعد وهم لا يملكون الا الانتظار ؟.. ولماذا تحدث هذه الثروة هذا التناسب العكسي بينك وبينهم .. فبمقدار الثروة تبتعد عنهم وتصدر عليهم الاحكام : الجهل . الحسد .

ـ لا . لا اقصد هذا ، لكنني أعرفهم . حين يصح الخبر سوف تصيبهم الغيرة اول الامر ثم يحاولون التقرب مني . وهذا نفاق لا اطيقه . مع انه نفاق لا بد من هضمه لكي يمكن لي الاستمرار ثم يصيبهم مرض الثروة وربما يكيدون لي أو يقذفون في البئر مادة تغير محتواها . لذا لا يمكن التعامل معهم . انهم لا يصلحون لشيء ..

ـ ذلك افتراض مسبق ، تبنيه على ما قد يحدث فكشفت لعبة الزمن الرديئة في زمن مبكر .

ـ اللعبة ايها الصديق مستمرة . قد اكون انا البطل . أنت سعدى . وما أنا وأنت وسعدى الا هذه الاوراق . قد تستبدل الاوراق العادية باوراق بلاستيكية فميزتها الوحيدة بقاؤها في اللعبة اطول زمن ممكن !

ـ اذن فانت تعرف ذلك ، بل وتمارسه بكل دقة.

ـ نعم هي مسألة البقاء . أدرك انه التصادم بين الرغبة في السمو بالهدف والمبدأ ، وبين فكرة البقاء حتى ولو على حساب الاخرين . انه عذاب رهيب . عذاب مومس جائعة تحت جسد تحتقره . تكره رائحته العفنة ...

* * *

● نشرت الصحف تكذيبا للخبر القائل بوجود بئر بترول في قرية ( الناعمة ) بعد ان تمت دراسة التربة دراسة علمية وان ما حدث لا يعدو كونه تسربا في الطبقات لمحطة محروقات مرتفعة قليلا عن البئر ...

دوت ضحكة مريرة انتشرت في القرية . شربت شجرة اللوز ماء البئر الملوث . اصفرت اوراقها .. تساقطت .. جاء العصفور ليحط فوق الشجرة . لم يجد ما يتفيأ .. اصابته الشمس بدوار .. سقط فوق الارض .. والقمح منتشر .. جاء الكلب . ابتلعه . لم تستطع سعدى الصراخ .. اندلق الماء من القربة ، وبرزت من فتحة الثوب ثمرتان امتصهما الجفاف .

**الرياض ( السعودية )**